محاسن محمد الوقاد ، *اليهود فى مصر المملوكية فى ضوء وثائق الجنيزة (٦٤٨ – ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ – ١٥١٧م)* ، (القاهرة ١٩٩٩)

عرض / سند أحمد عبد الفتاح

تعتبر موضوعات التاريخ المملوكى من أكثر الموضوعات التى لدينا معرفة كبيرة بهـا ، نادرا ما تتوفر لمجالات أخرى ، لأن الحقبة المملوكية نملك بصددها مادة تاريخية عظيمة كمـا وكيفا ساعدت فى استجلاء غوامض بعض الدراسات التاريخية ابان ذلك العصر .

ومن الثابت أن المجتمع المصرى المملوكى كان يشتمل – إلى جانب المسلمين – علـى الطائفتين اليهودية والنصرانية ، وفى هذا العرض سنتناول بالدراسة والتحليـل دور اليـهود فحسب

فى هذا المجتمع حيث لم يكونوا كيانا منعزلاً عنه ، أو بمعـزل عـن النواحـى السياسـية والاقتصادية والاجتماعية إبان ذلك العصر ، بل اندمجوا فىنسيجه فلعبوا دوراً مهماً ومؤثـراً فى عصر سلاطين المماليك .

وليست ثمة دراسة تفصيلية كاملة ودقيقة عن تاريخ اليهود فى مصر المملوكية رغم أن كتب المستشرقين من أمثال أشتور ، وجواتين ، ومارك كوهين ن ويعقوب مان تحفل بـأكثر من مسح لأحوال اليهود ، لكن هذه الدراسات فى الغالب – وهو أمر جـد مفـهوم – لا تتحرى النزاهة العلمية المطلقة ، ومن هنا تنبع الأهمية الحقيقية لهذه المحاولة العلمية التى ترمـى إلى توضيح حقيقة دور اليهود فى مصر المملوكية بشكل موضوعى ودون تحيز .

والكتاب الذى بين أيدينا محاولة رائدة فى هذا المجال ، وهو فى الأصل الأطروحة الـتى تقدمت بها المؤلفة لنيل درجة الدكتوراه فى الآداب – جامعة عين شمس ، حيث تحاول فيـه مقابلة ما أورده المؤرخون العرب ، وما جاء فى نصوص الجنيزة ، بصدد طائفة اليـهود فى مصر إبان العصر المملوكى بهدف تصحيح العديد من المفاهيم المغلوطة بالنسـبة للطوائـف اليهودية .

وقد قسمت المؤلفة الكتاب إلى أربعة أبواب ، مسبوقة بتمهيد عن أحوال اليهود منـذ الفتح الإسلامى وحتى قيام دولة المماليك ، واستعرضت فيه بصفة عامة أحوالهم السياسـية والاقتصادية والاجتماعية والدينية وموقف الطبقات الحاكمة منهم .

ثم استعرضت في الباب الأول مكانة اليهود فى الدولة المملوكية من خـــلال ثلاثـــة فصول تناولت فى الأول منها علاقة اليهود بالطبقة الحاكمة والجزيـــة الواجبـــة عليـــهم ، والشروط اللازمة لعقد الذمة معهم ، وموقف سلاطين المماليك الرسمى منهم ، وكشـــفت النقاب لنا عن أن اليهود عاشوا كجزء لا يتجزأ إبان ذلك العصر ، وبينت مـــدى حـــرص سلاطين المماليك أنفسهم على التزام العدالة تجاههم عملا بتعاليم الدين الإســـلامى حيـــث قاموا بمنحهم العديد من الألقاب التى رفعت من مكانتهم ، كما أبرزت دور رئيس اليـــهود فى الوساطة بين الدولة ورعاياها من اليهود ، ولجوء اليهود أنفسهم للشكوى منه فى حالـــة خروجه عن الطريق الصواب ، وأثبتت كذلك أن العلاقة بين اليهود وسلاطين المماليك قـــد سارت فى مسارها الطبيعى باستثناء بعض الحوادث العارضة والتى كـــان يعقبـــها إصـــدار المراسيم ضدهم ، والتى لم تلبث أن تخف حدتها تدريجيا إلى أن تقع تحت طائلة النسيان .

ثم تطرقت فى الفصل الثانى إلى الوظائف الهامة التى شغلها اليهود فى عصر ســـلاطين المماليك، لأنهم لم يكونوا مجرد أقلية منعزلة داخل هذا المجتمع ، بل ذابوا داخله وامـــتزجوا ببقية أعضائه من الطوائف ، فلعبوا دوراً كبيراً فى مجال الطب ، وتولوا العديد من الوظـــائف الإدارية والمالية ، لاسيما إدارة دار سك العملة .

وعالجت فى الفصل الثالث مدى التزام اليهود بالشروط العمرية ، وأماطت اللثام عـــن عدم التزام اليهود فى معظم الأحيان بالمراسيم التى كانت تصدرها الدولة المملوكية ضدهـــم ، ولكن هذا لم يمنع سلاطين المماليك من السماح لهم غالباً بترميم معابدهم ، وشراء الأراضى والمنازل فى سائر أنحاء البلاد .

ثم خصصت الباب الثانى لأحوال اليهود الاقتصادية ، من خلال فصلين ، تنـــاولت فى الأول منهما حرف وصناعات اليهود ، وبينت أن نسبة كبيرة منهم قد عملـــت بـــالحرف والصناعات المختلفة ، كحرفة الصباغة ، وصياغة الذهب والفضة والنحاس ، وبينت مـــدى التدهور الذى أصاب الصناعات والحرف فى عصر المماليك الجراكسة ، ومـــدى انعكاســـه على المجتمع المصرى .

واستعرضت فى الفصل الثانى النشاط التجارى لليهود ، الذين مارسوا جميع أنـــواع التجارة من العطارة إلى الأدوية ، بالإضافة إلى مشاركتهم فى تجارة الكـــارم " التوابـــل " ، والدقيق وممارستهم لأعمال الربا والصرافة ، وهو ما أدى إلى اكتظاظ الأسواق بهم فى عصر المماليك الجراكسة .

ثم عالجت فى الباب الثالث البنية الداخلية لجماعات اليهود فى العصر المملوكية ، من خلال فصلين ، أثبتت فى الأول منهما وجود ثلاث طوائف من اليهود ابان ذلك العصر تمثلت فى الدبانيين والقرائيين والسامرة ، واستعرضت كذلك تنظيم شئون الطوائف الداخلية والموضوعات الإدارية التى كان يتم مناقشتها داخل كل تنظيم ، وكشفت أيضا عن مدى سماحة الدولة المملوكية لهم بممارسة شعائرهم الدينية بحرية كاملة .

وتناولت فى الفصل الثانى الحديث عن الزعامة الدينية والقضاء اليهودى فى عصر سلاطين المماليك وأبرزت دور رئيس الطوائف اليهودية وواجباته وحقوقه ومسئولياته نحو الطوائف الثلاث، واستعرضت مجالس القضاء اليهودى وكيفية تشكيلها ، وحق اليهود فى اللجوء إلى القضاء الإسلامى ، بالإضافة إلى موقف فقهاء الإسلام من بعض المسائل الخاصة بهم ، وموقف القضاء الإسلامى من النساء اليهوديات ، وأبرزت كذلك أن مصر كانت من أهم الدول التى لجأ فيها اليهود إلى القضاء الإسلامى ربما بسبب رغبة بعض هؤلاء اليهود فى الحصول من خلاله على مكاسب لم يكن بإمكانهم الحصول عليها من خلال القضاء اليهودى خاصة فى مجال المواريث .

وخصصت الباب الرابع والأخير للحديث عن الأوضاع الاجتماعية لليهود فى العصر المملوكى من خلال فصلين ، تناولت فى الأول منهما أحوال الأسرة اليهودية من زواج وشروطه واحتفالاته ، وظاهرة تعدد الزوجات وموقف الشريعة اليهودية منها ، ودور الأم اليهودية فى تربية الأطفال وتنشئتهم ، وتعرضت كذلك للمآتم والأحزان وما كان يتم خلالها داخل الأسرة اليهودي، واختتمت هذا الفصل بالحديث عن ملابس اليهود فى العصر المملوكية الخاصة بالرجال والنساء والأولاد والبنات .

واستعرضت فى الفصل الثانى الأعياد والمواسم والاحتفالات عند اليهود ومدى سماحة الدولة المملوكية لهم بالاحتفال بها فى حرية تامة ، بل ومشاركة المسلمين لهم فى بعض هذه الأعياد، وتبادلهما للهدايا فى شتى المناسبات ، واختتمت هذا الفصل بالحديث عن موسم الحج ومدى أهميته بالنسبة للحياة الدينية الخاصة بيهود مصر .

وقد أثرت المؤلفة هذه الدراسة بالاستعانة بالعديد من المصادر القيمة والمتنوعة من وثائق ومخطوطات ومصادر ومراجع ، حيث استعانت بوثائق دير سانت كاترين ، ووثائق الجنيزة المنشورة ، بالإضافة إلى الوثائق الموجودة بين ثنايا المصادر العربية التى ترجع إلى عصر المماليك ، كما استعانت بالعديد من المخطوطات التى تتناول الحديث عن أهل الذمة من

يهود ونصارى ، ويأتى على رأسها مخطوط " شروط النصارى " لابـــن زيـــن القـــاضى ، ومخطوط " المذمة فى استعمال أهل الذمة " لابن النقاش ، ومخطوط " المقصد الرفيع المنشـــا الحاوى إلى صناعة الإنشا " للخالدى ، كما استعانت بالكثير من المصادر التاريخية الهمة مثل : كتاب " نهاية الأرب فى فنون الأدب " للنويرى ، وكتابا " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " و " السلوك فى معرفة دول الملوك " للمقريزى ، وكتاب " صبـــح الأعشـــى فى صناعة الإنشا " للقلقشندى ، كما استعانت بالعديد من كتب الطبقات والتراجم ، منـــها على سبيل المثال كتاب " وفيات الأعيان وأنباء الزمان " لابن خلكان ، وكتـــاب " ســير أعلام النبلاء " للذهبى ، وكتب الرحالة العرب واليهود ، مثل : كتاب " النجوم الزاهـــرة فى حلى حضرة القاهرة " لابن سعيد المغربى ، وكتاب " تحفة النظار فى غرائـــب الأمصـــار وعجائب الأسفار " لابن بطوطة ، وكتاب " رحلة طافور " للرحالة طـــافور ، وكتـــاب Travellers لأولد .

كما أثرت دراستها بالاستعانة بالكتب الفقهية مثل : كتاب " منهج الطالبين وعمدة المفتين " للنووى ، وكتاب " المدخل إلى الشرع الشريف " لابن الحاج ، كمـــا اســـتعانت بكتب الحسبة التى يأتى على رأسها كتاب " معالم القربة فى أحكام الحسبة " لابن الأخـــوة ، وكتاب " نهاية الرتبة فى طلب الحسبة " لابن بسام .

يضاف إلى هذه الوثائق والمصادر استعانتها بمجموعة كبيرة من المراجـــع والأبحـــاث الحديثة باللغات العربية والأجنبية ، التى عاونت فى استجلاء غوامض هذه الدراسة .

وفى الحقيقة نجد بعد هذا العرض أن المؤلفة قد أسدت بإنجاز هذا العمل أهمية لا تنكر للمهتمين بدراسة تاريخ اليهود فى مصر المملوكية ، اذ بدون هذه الدراسة يصعـــب علـــى الباحث التعرف على حقيقة الدور الذى قام به اليهود طوال العصـــر المملوكـــى بشـــكل موضوعى ، حيث امتازت هذه الدراسة بوضوح الرؤية وتحديد المنهجية ، ومدى وضـــوح الحاجة لهذا العمل والهدف من إعداده .

بيد أن تلك الميزات يقابلها على الطرف الآخر بعض الجوانب التى ربما تحتـــاج (فى رأيى المتواضع) على الأقل إلى إعادة نظر ، ومن هذه الجوانب طول الفترة المعنية بالدراســـة والتى نطمع من خلالها أن تخرج لنا دراسات عن أحوال اليهود فى مصر المملوكيـــة تكـــون أكثر تخصصاً ، كأن تكون فى عهد أحد سلاطين المماليك مثلا ، كمـــا نطمـــع أن تزيـــن

دراستها المستقبلية عنهم بالوثائق غير المنشورة كى تكشف لنا أضواءً جديدة تضفى من خلالها المزيد عن تاريخ اليهود فى مصر المملوكية.

وأخيرا فلعلنا بعد قراءة هذا الكتاب ، سنلمس مدى الجهد الكبير الذى بذلته المؤلفة لإنجاز هذا العمل العلمى الجاد الذى هو ثمرة سنوات طويلة متصلة قضتها فى هذا العمل الشاق ، لذا فهو بلا أدنى شك يسد ركنا مهماً فى المكتبة العربية كانت فى حاجة إليه، على اعتبار أنه وجبة علمية دسمة للمهتمين بدراسة تاريخ اليهود فى مصر المملوكية .